

الفصل الثاني

عالم البحر المتوسط

حتى اصطدامه بالفنوح الإسلامية

تحديده. العناصر السائدة فيه - الأحوال العامة للدول صاحبة
السيادة - الامبراطورية البيزنطية وأحوالها الاقتصادية والحربية
والدينية - إيطاليا وتوزع السيادة فيها بين أكثر من سلطة -
غاله وانقسامها بين الجرمان والرومان . دولة الفرنجة وأحوالها
العامة . عناصر الضعف فيها . انفلات السلطة الى حجاب القصر
اسبانيا والمجتمع القوطي .

obeykandi.com

المقصود بعالم البحر المتوسط ، الأقاليم والبلاد التي تحف بشواطئه من جميع الجهات ، فضلا عن جزره المنتشرة فيه. ويقتسم السيادة في هذا العالم ثلاثة عناصر أساسية : العنصر الإغريقي أو اليوناني أو الرومي ، وتمثله الإمبراطورية البيزنطية ، وبقايا العنصر اللاتيني ، ويحكم في مناطق مبعثرة ، وعنصر جديد طرأ على أوربا ، وظل يقرع أبوابها منذ القرن الثالث الميلادي ، وهذا هو العنصر الجرمانى أو التيوتونى ، والعنصر الأخير هو الذى قدر له أن يشكل تاريخ أوربا الحديثة ، فقد طوى أغلب السيادات القائمة فى هذه البقعة من العالم، وبه زالت فكرة الدولة العامة ذات السيادة العالمية ، وهى السيادة التى حققها الرومان فى عالم البحر المتوسط لبضعة قرون .

أما الدولة البيزنطية أو دولة الروم ، كما عرفها العرب ، فهى تسيطر على أغاب شواطئ البحر المتوسط وجزره ، وعاصمتها بيزنطة Byzantium أو القسطنطينية أو روما الجديدة ، وتشمل أملاكها الممتدة على سواحل البحر الشمالية : شبه جزيرة البلقان والجزر الملحقة بها ، وآسيا الصغرى ، ومن الشرق يتبعها سوريا وفلسطين ، ومن الجنوب : مصر وشمالي أفريقيا وكانت أفريقية حديثة العهد بالعودة إلى حظيرة بيزنطة ، بعد زوال دولة الوندال منها (٥٣٣ م)^(١) ، كذلك امتد سلطان بيزنطة السياسى إلى وسط

(١) راجع شمالى أفريقية والوندال للمؤلف .

إيطاليا وجنوبها وبعض بلاد محدودة ، ولفترة قصيرة ، على ساحل أسبانيا الجنوبي الشرقى (١)

وتلخص أحوال الإمبراطورية البيزنطية العامة، في أنها تمتعت خلال القرن السادس الميلادي—وهو القرن السابق لقرن الافتوح الإسلامية — بالقوة والقدرة الاقتصادية ، فقد ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة في ولاياتها الكبرى ، بصفة خاصة ، وهي آسيا الصغرى وسوريا ومصر ، ولكل من هذه الولايات قاعدة عالمية الشهرة ، هي القسطنطينية وإنطاكية والإسكندرية . قامت هذه القواعد مراكز صناعية كبرى لعالم البحر الأبيض كله ، وصدرت إليه منتجاتها من المنسوجات والبردى والزجاج والأواني المعدنية ، كذلك كانت تصدر ما يرد إليها براً وبحراً من بلاد الصين وجزر الهند الشرقية ، فقد كانت مصر نهاية طريق البحر الأحمر ، وسوريا نهاية طريق الخليج العربي وكذلك الطرق البرية المخترقة لبلاد فارس ، وكذلك كانت القسطنطينية نهاية طريق أرمينية والبحر الأسود (٢) .

ولم تغفل بيزنطة عنايتها بالقوات البحرية ، ولا سيما في القرن الذهبي المشهور ، بل إن هذه العناية هي التي شكلت نظامها ، منذ عهد الإمبراطور

(١) انظر : دولة القوط الغربيين المؤلف من ١٠٢ — ١٠٥ ،

Bayet (H. G.) T. I. PP. 626 - 628

(٢) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (ترجمة أحمد

عيسى وتقديم ومراجعة المرحوم محمد شفيق غريب) ص ١٦ (المقدمة) .

جستينيان Justinian (ت ٥٦٥ م) وهرقل (ت ٦٤١ م) وعهود من جاء بعدهما (١) .

واتجهت هممة الأباطرة البيزنطيين إلى احتلال الثغور البحرية والسواحل ، وتجنب التورغل في الأراضي الداخلية، ومن ثم قلت حاجتهم إلى الجيوش البرية الضخمة (٢) .

وبما ساعد على تفوق بيزنطة البحري ، في تلك الفترة ، أنه لم يكن لها منافس ، وهي في ذلك تشبه تفوق بريطانيا البحرية في مطلع العصور الحديثة ، فكان لبيزنطة في العصور الوسطى سينته (Ceuta) وبعض الساحل الجنوبي لأسبانيا ، والساحل الأفريقي الشمالي وجزر سرديانية وقورسيقه وصقلية وكريت وقبرص ، ومدينة الإسكندرية فضلا عن جنوه ورافنا ونابلي والدرديل والقرم. ولم تقتصر بيزنطة على البحر المتوسط بل تجاوزته إلى غيره من البحار والأقطار ، وكان هذا التجاوز هو سر المنافسة الحادة بين الروم والفرس (٣) .

غير أن بيزنطة قد شقيت بالخلافات الدينية شقاء كبيراً ، بل إن الصراع المذهبي هو المشكلة المزمنة التي لازمت الإمبراطورية البيزنطية

(١) انظر : بينز : الامبراطورية البيزنطية (ترجمة مؤنس وزميله) ص ٢٦٩ - ٢٧٦

Forod, E., The Byzantine Empire, pp. 203-212, Diehl, Ch. & Marcais, G. Le Monde Orientale De 395 à 1081 (II, G.) T. III, p. 508, Lindsay, J. , Byzantium into Europe. pp. 395 - 405.

(٢) أرشيبالد لويس ص ١٦ - ١٨ (مقدمة غربال) .

(٣) أرشيبالد لويس ص ١٨ - ١٩

طوال تاريخها، حتى آخر لحظة من حياتها، في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي^(١)، وكان لهذا أثره البالغ في فشلها في حماية أقاليمها السورية والمصرية والأفريقية، عندما غزتها الجيوش الإسلامية زمن الأمبراطور هرقل (ت ٦٤١م)، والعجيب أن هذا الفشل وقع بعد انتصار الأمبراطور هرقل نفسه على الفرس وردهم إلى بلادهم، وذلك في حرب، اعتبرت في نظر بعض الكتاب، مثلاً مبكراً للحروب الصليبية، وإن كانت ضد عباد النار^(٢).

ويعلق أرشيبالد لويس A. Lewis، على انتصار العرب هذا على الروم بقوله^(٣):

« لقد نقض انتصار العرب على بيزنطة، انتصار الإسكندر على دارا^(٤)، وانتصار روما على هانيبال^(٥)، وانتصار الإمبراطور أورليانوس

(١) انظر: فشر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى (ترجمة زيادة والبار) ص ٤٥٦ - ٤٥٧.

(٢) انظر Grégoire, H', The Byzantine Church (In Byzantium into Europe Ed. by Baynes & Mors) pp. 86 - 185. Lindsay, op. Cit. pp. 171 - 220. Diehl & Marcais, op. Cit. pp. 21 - 36. أومان: الامبراطورية البيزنطية (ترجمة بدر) ص ١١٠ - ١٢٣، بينز (ترجمة مؤنس وزميله) ص ٩٥ - ٢١٧. (٣) القوى البحرية ص ٢٠.

(٤) انتصر الاسكندر الأكبر المقدوني على دارا ملك فارس في أكتوبر عام ٣٣١ ق.م في وقعة جوجاميل Gaugamela قرب نينوى، وذلك بعد فراغه من فتح مصر في السنة السابقة، وأوغل الإسكندر في أواسط آسيا حتى وصل الهند. وبوفاة الاسكندر عام ٣٢٣ ق.م بدأ ما عرف في التاريخ باسم العصر الهلنستي Hellenistic Age، وهو البصر الذي انتهى بوقعة أكتيوم Actium البحرية عام ٣١ ق.م (انظر: نصحي: مصر و عهد البطالة والرومن - تاريخ مصر العام - ص ٦٥ - ٦٦، Bury, J. History of Greece. p. 775).

(٥) توفي هانيبال ملك القينقيين عام ٤٠٦ ق.م.

على زنوبيا (١) ، ، ومعنى ذلك رجحان كفة الشرق على الغرب .

والمعروف أن الإمبراطورية البيزنطية، هي الدولة الأوربية الآسيوية الأولى التي اصطدمت بالفتوح الإسلامية في حوض البحر الأبيض .

أما إيطاليا في تلك الفترة ، والعرب يسمونها « البر الطويل » ، فقد وقعت فريسة الانقسامات الداخلية ، بعد أن انتهى أمر الإمبراطورية الرومانية في الغرب ، منذ عام ٤٧٦ م ، على يد أدواكر زعيم المعاهدين Faederati في الجيش الروماني (٢) .

اقتسم الحكم في إيطاليا أكثر من سلطة واحدة ، فأشرف البيزنطيون على أرخونية رافنا، وحددوها من نهر البو شرقا جبال الإبين حتى مدينة أنكرونا على الساحل الغربي للبحر الأدرياتي ، وذلك بعد أن أزالوا دولة

(١) زنوبيا العربية المنطردة الجميلة ، ملكة تدمر أو بالмира Palmyra هي زوجة أذينة الذي منحه الرومان لقب « دوق الشرق » Dux Orientis . خلفت زوجها على العرش نيابة عن ابنها عام ٢٦٧ م ، وذلك على أثر مقتل زوجها بإيعاء من روما . واسم زنوبيا بالآرامية ، « بات زيبى » وبالعربية « الزباء » وكذلك « زينب » ، ويسمى ابنها الذي حكمت باسمه « وهب اللات » أو « عبد اللات » . عرفت هذه الملكة بالقوة والعلو ، ونجحت في توسيع حدود مملكتها ، فانزعت مصر لفترة قصيرة ، كما استولت على جزء كبير من آسيا الصغرى وأزالت السيادة الرومانية عنها وطردت حاميات الرومان عام ٢٧٠ م ، ثم نودي بابنها الصغير ملكا على مصر ، وأصدرت عملة بدون رأس الإمبراطور أورليانوس Aurelianus فلم يسع الإمبراطور الروماني إلا محاربتها ، وجاء على رأس جيشه ودخل تدمر في ربيع عام ٢٧٢ م ، فهربت زنوبيا ، لاسكنها وقعت في الأسر وقيدت بسلاسل ذهبية . (انظر : حتى - ترجمة نافع - ص ٨٨ - ٩١) .

(٢) انظر نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب المؤلف (مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة - م ٢٠ - العدد الثاني - ديسمبر ١٩٥٨ - مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٢) ، أرشيبالد لويس ص ١٥ .

القوط الشرقيين عام ٥٥٠ م زمن الإمبراطور جستنيان (١) ، وكذلك حكمت بيزنطة الجزء الجنوبي من إيطاليا وجزيرة صقلية ، ودخل الغزاة الجدد اللومبارديون ، وهم جرمان ، عقب وفاة الإمبراطور جستنيان عام ٥٦٥ م وأسسوا لهم مملكة (٢) ، المنطقة التي عرفت باسمهم في شمالي إيطاليا عام ٥٦٨ م ، بزعامة ملكهم البوين Alboin ، واشتهر اللومبارديون بالتخريب والتدمير ، ولم تسلم روما من نهيم ، وامتد سلطان مملكة اللومبارد إلى الدوقيتين الكبيرتين في جنوب إيطاليا وهما: سبوليتم Spoletum وبنفتم Beneventum (٣) . وقد ظلت مملكة اللومبارد حتى عام ٧٧٤ م ، حين أزالها الفرنجة المناصرون للبابوية . ونظراً للتخريب الذي استهدفت له إيطاليا من جراء حروب جستنيان لاستعادة إيطاليا من القوط الشرقيين وما تلا ذلك من تخريب اللومبارديين ، يعيب بعض الكتاب على مشروع حركة الاسترداد reconquest الذي قام به جستنيان ، والذي أدى إلى تعرض إيطاليا لكثير من الكوارث ، إذ يقول فشر ، معقّباً على غلطة جستنيان في إزالة دولة القوط الشرقيين ، التي احترمت التقاليد الرومانية.

« والواقع أن المملكة التي وقفت من الروح والتقاليد الرومانية هذا الموقف الحميد ، استأهلت لأن تصبح زعيمة بإنقاذ إيطاليا من سلسلة الحروب الطويلة والفتن الداخلية التي تعرضت لها بلادها المنكودة طوال تاريخها منذ القرن السادس الميلادي ، إذ كان في استطاعة القوطيين أن

(١) انظر Deanesly. M. . A History of Early Medieval Europe (476 - 911) pp. 33 - 53

(٢) يسميها الفاشندي « مملكة اللندرية » (صبح الأعشى ج ٥ ص ٤١٥ - ٤١٦) .

(٣) فشر (ترجمة زيادة والبار) ص ٥١ . Hunt. W. , History of Italy . pp. 7 - 9 . Deanesly. op. Cit. pp. 245 - 259 . Pirenne. H. : A History of Europe. pp. 39 - 45.

يجعلوا من أنفسهم وصفاتهم الحرية والسياسة حتى لشبه الجزيرة ، بعد أن ذهبت ثلث الصفات عن أهلها الأصليين منذ قرون ، ومن هنا تتضح جسامة الغلطة التي انتهت بانقضاء على القوط الشرقيين ، فلو أنهم ظلوا وشأنهم ، لما حدثت الغزوات والفتوحات اللومباردية في شمالي إيطاليا ، ولما قامت الدولة البابوية في روما ، ولما أحييت الإمبراطورية الرومانية في الغرب ، بل ربما تحققت الوحدة السياسية الإيطالية على أيديهم في القرن الثامن الميلادي (١) .

ولاشك أن السلطة الثالثة ، التي انقسمت الحكم في إيطاليا ، هي البابوية فإن من أهم نتائج سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب ، ظهور سلطة البابا السياسية ، إذ تطلع إليه الإيطاليون ، بعد أن غدا البابا أهم شخصية رومانية باقية في إيطاليا . فانتقل مركز الأهمية والتوجيه والقيادة من قصور الأباطرة السياسيين إلى أروقة اللاتران Lateran ، أي إلى كنيسة روما (٢) .

وفي غاليا gallia (٣) ، انقسمت السلطة بين ثلاث دول جرمانية ناشئة ، أولاها : دولة القوط الغربيين ، في منطقة الحدود بين غاله وأسبانيا ، وهي

(١) فدمر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى (ترجمة زيادة والباز) ص ٥٠ - ٥١ .

(٢) انظر : Finlay, G. . History of the Byzantine Empire. pp. 243 - 244. Painter. pp. 104 - 120. Hunt, pp. 16 - 18. Levchenko. M. V. . Byzance. Des Origines a 1453 (Trad. de Pierre Mabille) PP. 135-141. Lindsay. op. Cit. p. 221 Sqg. . Foord. op. Cit. PP. 180-202. Vassilies A. A. . His'ory of the Byzan'tine Empire. pp. 136-139. ٥73-394. Bailly. A. . Byzance, PP. 163 - 175. C. Med. H. . Vol. III. p. 148. Vol. V. P. 167.

(٣) عن غاله قبل الفتح الجرمانى ، انظر : Hubert. H. . The Greatness & Decline of Cel's (Lod. . 1934)

المنطقة المعروفة باسم سبتيانيا أو منطقة المدن السبعة^(١) ، وذلك بعد أن طردهم الفرنجة من أكويتانيا .

والدولة الثانية، هي دولة البرجنديين في حوض الرون ومنطقة سافوى، أقام البرجنديون دولتهم في جنوبي غاله منذ أواخر القرن الخامس الميلادي وذلك بعد أن قضى الهون Huns على دولتهم الأولى في فرمز Warmes وماينز Mayence وسبير Speyer . وملك البرجنديين المشهور في نهاية ذلك القرن هو جندوباد Gundobad ومن أميرات البيت البرجندي الأريوسى المذهب ، كلوتيلدا Clotilda الكاثوليكية ، وهى التى تزوجت من كلوفس clovis ملك الفرنجة، وكان لها أثر كبير في اعتناق زوجها ورعاياه من الفرنجة المسيحية على المذهب الكاثوليكي ، ولهذا نتاجه البعيدة في مستقبل الفرنجة^(٢) .

أما الدولة الثالثة التى سادت في غاله ، فهى دولة الفرنجة Franks ، أعظم ملك الجرمان على الإطلاق ، ومؤسس هذه الدولة كلوفس (٤٨١ — ٥١١ م) . وتعرف باسم الدولة الميروفنجية . أو « العائلة الميرونجانية » . فيما عبر التونس^(٣) . نسبة إلى ميروفش Merovch جد كلوفس . ومن أهم أسباب عظمة هذه الدولة ، وبقائها أكثر من غيرها ، أنها خلفت من

(١) هذه المدن هى : أربونه Narbonne ونيم Nîmes وآجد Agde وبيزير Beziers ولوديف Lodeve وقرقشونه Carcassonne وماجلون Maguelone . وكانت منطقة سبتيانيا أولى المناطق التى زحفت إليها السيادة الإسلامية ، بعد فتح أسبانيا فيما بعد (انظر دولة الفوط الغربيين للمؤلف ص ٨٢ - ٨٤ ، p. 50 Eyre . (Ed.) European Civilisation)

(٢) Lavissee. Et., Histoire de France. T. I. PP. 48 - 66 , C. Méd. (٢) H. . Vol. III. PP. 134 - 36. H. G. T. I, PP. 97 - 106, 121 - 122. Deanesly, op. Cit. P. 30. Cartellieri. O. The Count of Burgundy (Studies in History of Civilization) pp. 24, 164 - 180.

(٣) أقوم بسالك عن ١١٣ .

عدها من سائر الجرمان ، مثل القوط والوندال والبرجنديين والسوييف (الجلالة) واللومبارد وغيرهم، إذ اعتنقت المسيحية على المذهب الكاثوليكي، فوافقت بذلك مذهب رعائياها من الرومان الغاليين، كما وافقت البابرية وظهرت بتأييدها، حتى لقب كارفس بملك الرومان *Rox Romanovum* ^(١).

اعتمدت دولة الفرنجة على رجال الدين ، ومن أهم أركان سياستها ، التبشير بالمسيحية في الأقاليم الوثنية البربرية مثل بلاد السكسون والألمان وغيرهم، وتضمن التبشير بالمسيحية نقل المدنية الرومانية والقانون الروماني إلى تلك الأصقاع ^(٢). وتحمس الفرنجة لحماية العقيدة المسيحية ، مما كان له أثره في النضال الإسلامي المسيحي ، وليس من باب الصدفة أن فرنسا ، دون غيرها ، من سائر دول الجرمان ، هي التي ساهمت بالنصيب الأوفى في الحروب الصليبية فيما بعد ، وأن لغتها هي التي سادت في الإمارات اللاتينية بالشرق ^(٣).

كانت مملكة الفرنجة *Regnum Francorum* موحدة زمن كارفس وخلفائه المباشرين ، وتعزى هذه الوحدة إلى شخصية كارفس ومقدرته ، وإلى حروبه الظافرة التي حطم بها قادة الجرمان الآخرين، كما أزال في عام ٤٨٦ م البقية الباقية من حكم الرومان في غالبا ، وهي مملكة سياجريوس *Syagrius* وعاصمتها سواسون *Soissons* ^(٤).

(١) دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ١٤٥ ، H. G. T. I, PP. 121 - 122

(٢) فشر ص ٣٥ - ٣٦ .

(٣) انظر 3 - 10 Barker, E. , The Crusades, والترجمة العربية (للدكتور رنسيمان) Runciman, S. , A History of the Crusades, Vol. I. ، ص ٢٤ - ٢٥ ، PP. 106 - 99.

(٤) Lavisse, op. Cit. pp. 94 - 96, 100 - 103. Deanesly, op Cit. (١) PP. 58 - 60 , Funk - Brentano : Histoire de France, PP. 200 - 207.

وعندما استقرت حدود ملكة الفرنجة عند جبال البرانس ، واستقر اللومبارد في حوض البير شمالى إيطاليا ، عندئذ تحورات الروح الحربية الجرمانية إلى صراع داخلى . فلم يكن للفرنجة أو غيرهم من الجرمان ، خبرة أو رصيد سياسى سابق فى معالجة الرعايا ، ورغم أنهم استخدموا بعض النظم الرومانية إلا أنهم لم يفهموا قيمة الحكومة المركزية ولم يعقلوها كما عقلها العرب ، مثلاً ، فى فارس وغيرها من البلاد التى فتحوها ، وذلك بالإبقاء على النظم القائمة الثابتة^(١) .

سار الفرنجة على قاعدة خطيرة ، كانت أهم معاول ضعفها وتمزيقها ، تلك هى ، تقسيم الملك كالإرث بين الأبناء ، ويشبه هذا ما وجد عند السلاجقة والدول الإسلامية التى نبتت فى أحضانهم مثل الدولة النورية والدولة الصلاحية .

جمل الفرنجة فكرة الدولة State وقيمة النجاس أو الحدود الاستراتيجية لأملأهم ، أو حتى الإمكانيات الاقتصادية التى ينبغى أن تتوافر ، ولم يكن أمامهم سوى اعتبار واحد ، هو تقسيم الإرث الموجود ، الثابت والمنقول بين المستحقين من أبناء البيت المير وفتحى^(٢)

وأول تقسيم مشهور فى تاريخ الفرنجة ، ماوقع فى عام ٥١١ م عقب وفاة كلوفس ، فقد قسمت المملكة بين أبناء كلوفس الأربعة ، فنشأ من ذلك أربعة ممالك فرنجة متنافسة^(٣) ، على أن التقسيم لم يقتصر على الأقاليم ، بل

Deanesly, op. Cit. , p. 261

(١)

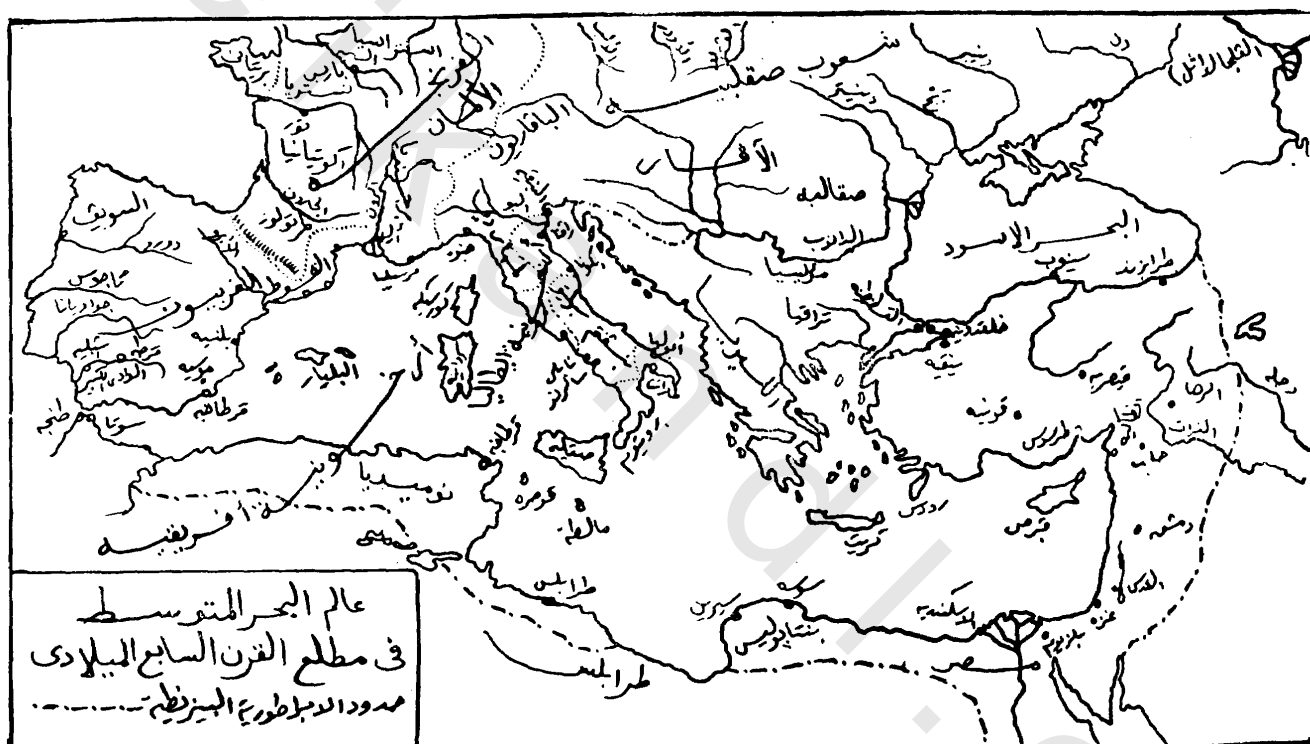
Ibid. , p. 262

(٢)

Il. G. T. l. p. 124. Funk - Brenano. op. Cit. , p. 265,

(٣)

Lavisse. op. Cit. , pp. 101 - 120



شمل كذلك تقسيم المدينة الواحدة بين أكثر من واحد ، مثل ميناء مرسيليا وباريس العاصمة نفسها ، ففي عام ٥٦٧ م قسمت باريس بين ثلاثة أخوة ، حتى إن الحصنة التي لم تقع فيها الأسقفية ، أقام فيها صاحبها أسقفية خاصة به (١)

والملاحظ على الفترة الممتدة من ٥٦١ م - وهي سنة وفاة لوثر الأول ابن كلوفس - إلى ولاية شارلمان عام ٧٦٨ م ، وتقدر بأكثر من قرنين ، أنها فترة مضطربة ، اشتد فيها الصراع ، ليس فقط بين الممالك الفرنجية التي انقسمت إليها دولة الفرنجة ، ولكن كذلك بين ملوك الفرنجة الميروفنجيين وبين حجاب قصورهم ، مما أدى إلى تدهور التقاليد اللاتينية في غاله ، ولا سيما في الجنوب .

كان حكم الميروفنجيين خلال تلك الفترة حكماً اسماً ، فقد انتقلت السلطة الفعلية تدريجياً إلى حجاب القصر ، وبرزت سلطة حجاب قصر مملكة أستراسيا Austrasia الفرنجية ، وهي الجزء الشرقي من فرنسا (٢) ، وهؤلاء الحجاب من سلالة أرنولف Arnulf أسقف Metz ، أمثال ييبين الأول Pepin الأول وييبين الثاني وشارل مارتل ، ومن هذه الأسرة قامت أسرة الكارولنجيين Carolingians التي أنهت حكم الميروفنجيين ، في منتصف القرن الثامن الميلادي (٣) .

Deanasty, op. Cit. , p. 287.

(١)

(٢) فشر ص ٧٤

(٣) موطن الكارولنجيين الأصلي هو بلجيكا الحالية تقريبا ، وبرز فيها شخصيتان هما : ييبين صاحب بلدة لاندن Landen بمقاطعة برابانت Brabant الحالية ، ودوق أرنولف ، الذي صار أسقف متر فيما بعد ، وصار ييبين حاكماً لقصر أستراسيا عام ٦٢٢ م ، وزوج ابنته لابن أرنولف ، وكان من نتاج هذه المصاهرة ييبين الثاني الذي تولى رئاسة البلاط في أوستراسيا عام ٦٨١ م ثم في نوستريا Neustria - وهي الجزء الغربي من فرنسا - عام ٦٨٧ م (فشر ص ٧٥ - ٧٦) .

وزاد من مركز حجاب قصر أستراسيا ، أنهم هم الذين انبروا لحماية فرنسا من الخطر الخارجى ، ولا سيما خطر الفريزيين Frisin المقيمين على ساحل بحر الشمال حتى نهر الفيزر ، هزمهم ييبين الثانى (ت ٧١٥ م) واستعاد المدن التى استولوا عليها ، كما هزم الألمان Alemans والبافارين ، فهبت جهوده لسيادة خلفائه من بعده ، وصار يد هؤلآء الحجاب تولى الملوك الميروفنجيين وعزلهم (١) .

ومن أبرز خلفاء ييبين الثانى حفيده شارل مارتل (٧١٩ — ٧٤١ م) ، الذى اشتهر بالشجاعة والكفاية ، قام بالغزو المنظم فى كل صيف ، وحطم الأعداء المحيطين بدولة الفرنجة ، ونجح فى جميع حروبه ، فأخضع دوقية ألمانيا بعد أن شن عليها أكثر من حملة ظافرة ، فى أعوام ٧٢٠ ، ٧٢٢ ، ٧٢٤ ، ٧٢٨ م كما أخضع بافاريا بعد حملتين ناجحتين فى ٧٢٥ ، ٧٢٨ م ، وكذلك حارب الفريزيين عام ٧٣٣ ، ٧٣٤ م (٢) ، وهو الذى هزم المسلمين فى واقعة بلاط الشهداء ، كما سرى فيما بعد ، ويقال إنه لقب بالمطرقة Martel لأنه دحر أعداء الفرنجة ، أو لشدة ما أنزل بالكنيسة الكاثوليكية فى غاليا من صارم الضربات التى استلزمها فساد رجال الدين فى عصره (٣) .

وكانت دوقية اكويتانيا ، فى غاله ، شبه مستقلة ، ويحكمها دوق فرنجى هو أود Eudes . ويتحين الفرص لتوسيع دوقيته على حساب الميروفنجيين ، فخاربه شارل مارتل وهزمه عام ٧٣١ م ، لكنه لم يخضع لنفوذه ، غير أن

(١) Deanesly, pp. 276 - 282. Lavissee, op. Cit. , pp. 257 - 261.
Funk - Brentano, pp. 280 - 290. Pirenne, H. , A History of Europe pp. 72 - 79.

(٢) Deanesly, op. Cit. , pp. 276 - 285, Lavissee, pp. 257 - 261

(٣) فشر ص ٧٦ ، Deanesly, op. Cit. , p. 285

تعرض دوقية اكويتانيا ، بحكم موقعها ، لخطر المسلمين ، حمل الدوق على التحالف مع شارل مارتل ضد العدو المشترك . وهم المسلمون ، ومن ثم امتد نفوذ شارل مارتل على كل فرنسا تقريباً .

وفي زمن شارل مارتل صاحب قصر المير وفنجيين ، وابنه ييبين القصير صاحب القصر ، ثم ملك الفرنجة ، وحفيده شارلمان ، كان الصراع قد اشتد بين الفرنجة والمسلمين (١) .

وفيما يتعلق بأسبانيا ، كان صاحب الأمر فيها ، هم القوط الغربيون ، البرابرة الجرمان ، ولقد ترك القوط أسبانيا ، في مطلع القرن الثامن الميلادي ، كما دخلوها أول مرة ، في مطلع القرن الخامس ، مشهداً من مشاهد البؤس والفاقة ، دخلوها وهي مقسمة ضياعاً Latifundia بين أقلية من السادة الرومان ، تتمتع بكل الامتيازات ، وسط محيط من العبيد الأذلاء ، ولا بد لمثل هذا المجتمع المنهار ، من أن يسقط عند أول غزو ، هكذا كان الحال عند نهاية حكم القوط ، فقد تركوها على هذا النحو أو ما يقرب منه (٢) .

قام المجتمع القوطي على نظام الطبقات ، فاستولى النبلاء فيه ورجال الدين على نحو ثلثي الأراضي الخصبة ، مع الإعفاء من الضرائب (٣) ، ولم جميع السلطات المدنية والعسكرية والروحية ، إذ كان رجال الدين يشاركون في حكم البلاد . أما جمهور الناس من التجار وصغار الملاك ، فوقع عليهم

(١) انظر ما يلي .

(٢) Dozy, R. , Les Musulmans d'Espagne, T. II, pp. 4 - 13.

Oman, Ch. , The Dark Ages, pp. 181 - 184. Bradley, H., The Goths, p. 348

(٣) العبادي : المجلد في تاريخ الأندلس ص ٤٤ - ٤٥ . دولة القوط الغربيين من ١٢٥ - ١٢٨ ، التونسي أقوم المساك ص ٣٤٩ ،

Scott, Vol. I, p. 184 , Lavisé (H. G.) T. I, p. 247

عبء دفع الضرائب وإشباع نهم الحكام ، ثم طبقة العبيد ، وهذه مرتبطة بالأرض ، تنتقل معها من مالك إلى آخر ، وهي طبقة كثيرة العدد ، ومع أن الكثير من أفرادها أقام بالمدن وزاول بعض الصناعات ، إلا أنهم حرموا جميعاً من شتى الحقوق. وبجانب هذه الطبقات توجد جالية كبيرة لليهود ، وتتحكم هذه الجالية في موارد البلاد الاقتصادية ، شأنهم في كل مكان ، وقد أحس ملوك القوط بوطأتهم فناصرهم العداء وتواصلوا بالتنكيل بهم واستئصال شأفتهم ، وصدرت عدة قوانين ضدهم ، من ذلك ما أصدره الملك شلشادس Siensaud (ت ٦٣٦ م) من قوانين تقضى بطردهم من المناصب العامة ، وربما كانت القوانين التي أصدرها الملك إرفج Ervig (ت ٦٨٧ م) من أقواها وأشدّها تنكيلاً باليهود^(١) .

نظر اليهود لأحوال أشقائهم عبر الزقاق ، في شمالي أفريقية ، حيث ينعمون بالتسامح في ظل السيادة الإسلامية الجديدة ، فاتصلوا بهم ودبروا مؤامرة للقضاء على حكم القوط ، حقيقة اكتشفها الملك أيقة Egica (ت ٧٠١ م) ، وأجبر اليهود على اعتناق المسيحية إلا أنهم لم يكفوا عن الكيد والتدبير ضد حكم القوط ، وهذا يفسر ترحيب اليهود بالمسلمين عندما دخلوا أسبانيا ، وهم في ذلك يشبهون أقباط مصر في العصر البيزنطي ، عندما رحبوا بالفتح العربي الإسلامي^(٢) .

ومن عناصر ضعف المجتمع القوطي كذلك ، الصراع المستمر على

(١) راجع دولة القوط الغربيين المؤلف من ١٦٧ - ١٦٨ وانظر :

Scott. I. PP. 172 - 173, 173-184, 192. Leclercq. H. , L'Espagne Chrétienne PP. 342 - 4.

Leclercq. op. Cit. PP. 306, 333, 362. Deanesly. PP. 104, 106. (٢)

Dozy II. PP. 25 - 7 Pirenne. P. 155. Lévi - Provençal. Histoire de L'Espagne Musulmane. T. I. PP. 1 - 7. H. G. T. I. P. 248. Guana. op. Cit. PP. 233 - 4. Diehl. ch. L'Afrique Byzantine. P. 589.

العرش ، إذ كانت الملكية القوطية قائمة على الانتخاب ليظل العرش حقاً مشاعاً بين القادرين على اغتصابه ، وهذا بجانب حقد الرعايا من الرومان الأسبان لاختلافهم في المذهب الديني ، ولم تفلح سياسة القوط الدينية عندما تحولوا إلى الكاثوليكية في أواخر القرن السادس الميلادي ، فقد جاء هذا التحول متأخراً ^(١) ، كما لم تفلح تشريعاتهم القانونية للمزج بين القوانين الجرمانية والقوانين الرومانية ، حتى تزول الصفة الشخصية عن التشريعات الجرمانية (٢) .

ظلت الكراهة قائمة بين الرعايا والحكام ، كما ظلت مؤامرة الصراع حول العرش ، وآخرها مؤامرة لودزيق Rodericus ^(٣) التي انتهت بطرد الملك غيطشه Wetiza وتولى لودزيق العرش (٧١٠ - ٧١١ م) فاستعانت الأسرة وأنصارها بالمسلمين ، وما كاد عام ٩٢ هـ - ٧١١ م يأتي حتى تعرضت دولة القوط الغربيين ، لأخطر ما تعرضت له في حياتها ، ومهما قيل عن عوامل ضعفها ، وكثرة ما خاضت من حروب وقتن مهلكة ، فلم يكن هناك خطر يهدد أسبانيا البربرية بالزوال ، قبل وصول فرسان العرب المسلمين إلى إفريقية ، جاء هذا الخطر سريعاً وحاسماً ^(٤) .

(١) Lavisser, E. (H. G. & T. I. P. 249. Bradley, PP. PP. 381 - 382, (١) Leclercq, P. 279.

(٢) دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ١٤٣ - ١٤٨ De Marls Scott, I. P. 184. M. , Histoire de la Domination des Arabes et des Maures en Espagne et En Portugal, PP. 58 - 60

(٣) يسميه القلقشندي : غطشه (راجع صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٣٨ - ٢٤١) .

(٤) راجع دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ١٢٠ - ١٢١ ، العبادي ص ٤٦ ،

Lévi - Provençal, op. Cit, PP. 1 - 7. Scott, I. pp. 217 - 19. Lot, F., Les Invasions Germaniques, p. 187.